# من آيات الله

# فى الأرض

قال تعالى فى سورة الرعد: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

هذه الآية الكريمة تعرض مشاهد أرضية، وهذه المشاهد الأرضية كثير من الناس يمرون عليها فلا تثير فيهم حتى رغبة التطلع إليها إلا أن ترجع النفس إلى حيوية الفطرة والاتصال بالكون الذى هى قطعة منه، انفصلت عنه لتتأمله ثم تندمج فيه.

﴿**وفى الأرض قطع متجاورات**﴾ أراض يجاور بعضها بعضاً ثم هى فى التجاور مختلفة، فهذه طيبة تنبت ما ينفع الناس، وهذه سبخة مالحة لا تنفع الناس، وهذه تربتها حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة، وهذه سهلة، وهذه مُرمِّلة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة.. وكل واحد من هذه وتلك أنواع، وألوان، ودرجات.. منها المقفر الجدب، ومنها الصخر الصلد، ومنها العامر الغامر، ومنها المزروع الحى، والمهمل الميت، ومنها الريان والعطشان.. ومنها ومنها ومنها، وهى كلها فى الأرض متجاورات، يجاور بعضها بعضاً فى تربتها وانتفاعها بأشعة الشمس.

هذه اللمسة العريضة فى التخطيط ﴿**وفى الأرض قطع متجاورات**﴾ تتبعها تفصيلات تبدأ بقوله تعالى: ﴿**وجنات من أعناب وزرع ونخيل**﴾ أى وفى الأرض حدائق وبساتين كثيرة مزروعة فى قطع الأرض المتجاورة، وتشتمل على أشجار الكروم التى تثمر العِنَبَ والزبيب، وتشتمل أيضاً على الزرع الذى يثمر أنواع الحبوب والبقول، وفيها النخل الذى يثمر البلح، والرطب، والتمر.

وقوله تعالى : ﴿**وجنات من أعناب وزرع ونخيل**﴾ تمثل ثلاثة أنواع من النبات الكَرْمُ المتسلق، والنخل السامق، والزرع من بقول، وأزهار، وما أشبه ذلك، مما يحقق تلوين النظر، وملء فراغ اللوحة الطبيعية، والتمثيل لمختلف أشكال النبات. وقوله تعالى: ﴿**وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان**﴾ لفتة لتنبيه الإنسان إلى بعض مظاهر قدرة الله وحكمته سبحانه وتعالى. والصنوان: جمع صنو، والصنوان الشجرة التى لها رأسان وأصلها واحد. فالصنوان هو الأصول المجتمعة فى منبت واحد، كالرمان، والتين، وبعض النخيل، ونحو ذلك.

وغير الصنوان ما كان على أصل واحد كسائر الأشجار، أى وفى الأرض أنواع الزروع وأنواع النخيل، ذات الساق الواحدة، أو السيقان المتعددة.

ونلاحظ فى الآية: ﴿**وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان**﴾ أنها لم تَرْمِ إلى استيعاب حاصلات البساتين، إنما ذكرت نموذجاً لما يَتسلَّقُ ويقومُ على عرائش وهو الأعناب، وآخر للشجر الذى يقوم على ساق وهو النخيل الذى له جذوع صلبة وطويلة، أما الزرع فإنه شامل لكل أنواع الحبوب والبقول وقوله تعالى: ﴿**يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل**﴾ بعد قوله تعالى: ﴿**وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان**﴾ يفيد التعجب من قدرة الله تعالى، فيما يبدعه فى عالم البساتين، حيث بينت أن هذا النبات والشجر، على اختلاف كل منهما يُسقى بماءٍ واحدٍ، فى أرض متجاورة ومتشابهة في التربة والجو، ولكن الثمرات متنوعةً فى الطعم، والشكل، واللون، والرائحة، وربما كان ذلك فى الشجرة الواحدة.

فهذا الاختلاف فى أجناس الثمرات والزروع، فى أشكالها، وألوانها، وطعومها، وروائحها، وأوراقها. هذا فى غاية الحلاوة، وهذا فى غاية الحموضة، وهذا فى غاية المرارة، وهذا بين بين، وهذا اجتمع فيه هذا وهذا، وهذا أصفر، وهذا أبيض، وهذا أسود.

ولا شك أن هذا ناشئ من أن وراء الطبيعة ربّاً حكيماً، هو الذى يوزع

النواميس والطبائع ويبدع غير المألوف، ويخالف المألوف، ليعرفه عباده بما يبدعه لهم، من هذه المؤتلفات والمختلفات.

ولو كانت الطبيعة هى الفاعلة لما وقع هذا الاختلاف، بل لما وجد من ذلك شئ، فإن الطبيعة لا عقل لها ولا إرادة، فمن غَيْر الخالق المدبر المريد يفعل هذا وذاك.

مَن منَّا لم يذق الطعوم مختلفات، فى نبت البقعة الواحدة. فكم منا التفت هذه اللفتة، التى وجه القرآن إليها العقول والقلوب؟.

إنه بمثل هذا يَبْقَى القرآن جديداً أبداً، لأنه يجدد أحاسيس البشر، بالمناظر والمشاهد، فى الكون والنفس، وهى لا تنفذ، ولا يستقصيها إنسان فى عمره المحدود، ولا تستقصيها البشرية فى أجلها الموعود.

قال تعالى: ﴿**إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون**﴾ أى فى اختلاف الأراضى، وجنات الأعناب، والزروع، والنخيل المتعدد الأصل، وغير المتعدد، واختلاف الثمرات، مع كون الماء الذى به نماء النبات واحداً. لآيات ودلائل تشهد بقدرة الخالق، وتَحدِّثُ عن علمه، وحكمته، ولكن ذلك لا يقع إلا لمن كانت لهم عقول، تفرق بين المحسوسات.

إذ كانت تلك الآيات من الظهور والبيان بحيث لا تخفى على أى إنسان له مَسْكَةٌ من عقل. فكل إنسان احتفظ بإنسانيته قادرٌ على أن يوجه عقله، إلى تلك الآيات، وينتفع بها فى التعرف على خالقه.

وفى الآية الكريمة: ﴿**وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [الرعد: ٤].

فيها معارض متعددة، يعيش فيها الإنسان بكيانه كله، ويلقاها بحواسه جميعاً البصر، والشم، والذوق، واللمس، فإذا لم يكن وراء هذه الحواس عقلاً يدرك، فقد خرج الإنسان من عالم البشر إلى عالم الحيوان، ولم يكن أهلاً

للخطاب والتكليف. تلك هى دعوة الإسلام للعقل كى يتعرف على الله، ويسلك سبيله إليه، بالنظر فى ملكوته والتدبر فيما أبدع وصور. وإن العقل على أى مستوى لن يخطئه الطريق إلى الله إذا هو وقف بين يدى تلك الأيات متجرداً من الأهواء الفاسدة، والموروثات الضالة، وأعطى لنفسه الحق فى الاستقلال بعقله، والإصغاء إلى صوت ضميره.

* * *